

الإسلام- الترك- مصر

روابط وصلات تاريخية

الأستاذ الدكتور

أسامة سيد علي أحمد

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

ووكيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية لشئون التعليم والطلاب

جامعة قناة السويس

٢٠١٠ - ٢٠٠٩

الإسلام- الترك- مصر

(روابط وصلات تاريخية)

أ.د. أسامة سيد علي أحمد

مما لا شك فيه أن الروابط التاريخية بين العرب والترك قديمة قدم الزمان البعيد، فمنذ أن هاجر الترك من قلب آسيا إلى حوض نهري دجلة والفرات في الألف الخامس قبل الميلاد وبدأت هذه الصلات، فقد شيد الترك هناك أولى حضارات العالم القديم وهي حضارة السومريين، وإن كنا لا نعلم حتى الآن هل فعلاً الترك قد صنعوا هذه الحضارة أم لا، ولكن على أقل تقدير إن لم يصنعوها فقد شاركوا في صنعها، وإن كان من المرجح حسب ما ذهب إليه بعض الباحثون أن السومريون هم قوم من الترك الذين نزحوا من وسط آسيا واستقروا بالشرق الأدنى وقد استند هؤلاء في زعمهم هذا على عدة دلائل منها الألفاظ السومرية التركية المشتركة^(١).

وإن كان وجهة النظر هذه قد واجهت هي الأخرى اعتراضات لا يتسع المقام لذكرها الآن، إلا أنه حسبنا أن نقول أن هناك علاقات وصلات كانت قائمة بين الترك الساميين وبين العرب الرافدين^(٢).

والحقيقة التي لا مراء فيها أن رغبتنا في تتبع تلك العلاقات والروابط بين العرب والترك من نقطة البداية هي التي جعلتنا نحوم حول تلك الحقائق التي لم يقطع فيها المؤرخون برأي جازم.

وإذا بدأنا الحديث عن هذه العلاقات تخصيصاً نجد أنها اختلفت وتباينت بين مد وجزر على مدار التاريخ، واتخذت أشكال عدة، فمنها ما كان بقوة السلاح، وأغلبها كان سلمياً في فترات السيادة التركية.

وأول ما يطالعنا عند تناول هذه العلاقات ما ورد ذكره لدى بعض المؤرخين من أن الملك الحارث اليميني المعروف بملك الأملاك أقدم على غزو الترك في عقر دارهم وذلك بإيعاز من الفرس، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف خرج الرائش ملك اليميني في جيش جرار متجهاً صوب أذربيجان ودخل بلاد الترك بالفعل، وهناك حقق انتصاراً مؤزراً، واستمرراً لهذا الجهد وتأكيداً له فقد دون ملك اليميني أخبار هذا الانتصار على حجرين كبيرين متقابلين أمام الداخل على مشارف المدينة التركية.

وقد يندهش البعض عندما نقول أن ملك اليمن تجاوز في فتوحاته هذه أرض أذربيجان عندما تخطاها وتوجه صوب أرمينية ومن أرمينية انتشر في مساحة شاسعة من الأرض، وبعدها عاد إلى بلاد الشام والحجاز^(٣).

وقد نزيل كثيراً من أسباب الدهشة عندما نذكر أن أرض الترك أصبحت هدفاً وغاية العرب قبل الإسلام، والدليل على ذلك أن الملك تبع الأكبر الذي ورد ذكره في القرآن الكريم واصل هذه المسيرة حتى استطاع التوغل إلى أقصى درجة في بلاد الترك.

هذا جانب من العلاقات بين العرب والترك قبل الإسلام، فعلى الرغم من أن هذه العلاقات كانت تمثل علاقات المتصارعين إلا أنها لم تكن في كلها شراً فقد عرفت العرب بأهمية بلاد الترك كما أن هذه العلاقات تخللتها فترات سلمية وتجارية مع ظروف الحرب.

لذلك لم يكن غريباً منذ أن أصبح للمسلمين السيادة على شبه الجزيرة وأن يصبح هدفهم التوجه إلى بلاد الترك، فمع اتساع رقعة الإسلام ورغبة من العرب الفاتحين في نشر الدين بين الآفاق كتب خليفة المسلمين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - إلى سلمان بن ربيعة يطالب منه المسير ناحية أرمينية، وبالفعل توجه سلمان إلى هناك وصالح الترك على الجزية، ومن أرمينية تقدمت جيوش الإسلام ناحية مدينة الباب التي يسكنها الخزر^(٤).

والغريب أن ملك الخزر كان يملك من الجند في ذلك الوقت ما يقرب من ثلاثمائة ألف مقاتل من الترك، في الوقت الذي لم يزد فيه جيش المسلمين عن عشرة آلاف من العرب ومع ذلك ترك ملك الخزر المدينة وارتحل عنها أثراً السلامة، ولما سئل عن ذلك قال عبارته المشهورة ((إن هؤلاء العرب قد هبطوا من السماء ولا يقتلون)).

وعلى كل الأحوال وإن صحت هذه الرواية أو لم تصح فقد دخل سلمان بن ربيعة مدينة الباب فوجدها خالية على عروشها فأقام بها أياماً ثم استأنف مسيرته في طلب خاقان ملك الترك الذي فر هارباً مقتنعاً بأن العرب لا يقتلون.

وإن كنا لا نعلم حتى الآن ما هو المقصود بالضبط بقول أن العرب لا يقتلون، هل هو كناية عن الشجاعة والقوة؟ أم أن العرب خلقوا من جنس آخر؟ وعلى كل

الأحوال فقد ظل الأمر على هذا الحال حتى استطاع رجل من الترك أن يرمي عربياً بسهم فأصابه في مقتل، ففصل رأسه عن جسده وذهب بها إلى خاقان الترك ليقنعه بكذب هذه الأسطورة وأن العرب يقتلون بالفعل^(٥).

وعند هذا الحد ظهرت قوة الترك الكامنة، والحق يقال أن تلك القوة لا يختلف عليها اثنان، وقديماً يروى في الأثر أن ذو القرنين عندما تعرض لبلاد الترك وفشل في التغلب عليهم نظراً لقوتهم وشدة بأسهم وشراستهم في القتال قال (اتركوهم) فسموا منذ ذلك الحين بالأتراك.

وعلى كل الأحوال، ما أن رأى الخاقان رأس العربي أمامه حتى نادى في الأتراك وحشدهم لقتال العرب، ودارت رحى معركة حامية الوطيس بين العرب والترك دارت فيها الدائرة على العرب فقد قتل منهم الكثير وكان من بين القتلى سلمان بن ربيعة نفسه، وسميت هذه المعركة باسم قبور الشهداء نظراً لكثرة من سقط فيها من شهداء العرب بأرض بلنجر التركية^(٦).

والحق يقال أن هذه المعركة لم تثني العرب عن معاودة غزو الترك مرة أخرى من أجل نشر الدين الإسلامي هناك، وفي هذه المرة تحرك العرب تحت قيادة عبد الله بن عامر الذي لاقى نفس مصير سلمان.

وتتصل هذه النقطة بما ذكرناه سابقاً من أن قوة الترك لا يختلف عليها اثنان، ومع ذلك لم تفتت هذه الهزائم في عضد العرب الذين صمموا على غزو أرض الجوزجان من أجل نشر الإسلام، وأن كان من المرجح حسب ما ذهب إليه الباحثون أن الترك دخلوا في دين الله أفواجاً بعد المعارك الضارية التي خاضها قتيبة بن مسلم الذي انتشر بفتوحاته في بلاد ما وراء النهر وأرض الأتراك كلها^(٧).

ولا يعني هذا أن الترك قد استكروها على اعتناق الإسلام تحت حد السيف، وعند النقطة نتوقف هنا قليلاً قبل عرض بقية الموضوع.

نتوقف لنقول أن الأتراك كانوا قد سُموا الوثنية التي يدينون بها، فمنهم الشامانيون الذين يعتقدون في وجود الهين واحد للسماء والآخر للأرض، وعليهم أن يقدموا القرابين لهما، وكذلك سُموا البوذية التي تسربت إليهم من الهند، وأيضاً الزردشية والمانوية التي تسربت إليهم من الفرس.

أما البقية الباقية منهم والذين يدينون بالمسيحية النسطورية والتي حملها المبشرون إليهم فقد غرقت هي الأخرى حتى أذاها في الخلافات العقدية، ومن المؤكد أن هذا كله دفع الأتراك دفعاً نحو الإسلام لاعتناقهم^(٨).

أما ما توهمه البعض بالقول بأن الترك قد استكروها على اعتناق الإسلام فليس له من الصحة نصيب، لأن خروج الترك من وثنتهم إلى وحدانية الله -عز وجل- يعتبر خروجاً من ضيق الدنيا إلى سعتها^(٩).

لذلك نرى أن دخول الترك في الإسلام كان عن رضا وطوعية ولم يكن كرهاً أو رهبة من سلاح العرب، لأن الترك شعب لا يستكين ولا يرضى بالضم، ويكفي أن نذكر هنا أن الترك تمكنوا من رد العرب على أعقابهم في كثير من المعارك حتى أنهم استردوا ما كان بأيديهم من مدن، ولم يبق في يد العرب سوى مدينة سمرقند، وكذلك استمر حال العرب في وضع قلق ببلاد ما وراء النهر التابع للترك طوال عهد الأمويين^(١٠).

وبدخول الترك الإسلام أصبح لهم جناحان أحدهما تابع للعرب عندما اختلطوا بهم على عهد العباسيين، والآخر خاص بهم، عندما أسسوا لأنفسهم دولاً قائمة بذاتها وما كان هذا ليتم إلا بفضل دخولهم في الإسلام.

وعلى هذا فإن التوهم السابق هو توهم أو هي من بيت العنكبوت. وكما قال كاتب تركي^(١١) في فضل الإسلام على الترك (إن القرآن الكريم كتاب الترك المقدس.. وكان الترك في غابر الزمان يأخذون أنفسهم بقراءة القرآن، والتفقه فيه، وكان ذلك دأباً لهم، فاستلهموه ما تعرف من عظام أعمالهم، وبوحي وفيض من القرآن ظلوا حملة لواء الإسلام عصوراً بعد عصور، وبلغوا قلب أوربا فحولوا بيوت الأصنام إلى مساجد، وأحلوا الآذان محل رنين النواقيس، كما أحيوا قدسية الفن المعماري الذي تعتبر روائعه أعظم تعبير عن الروح الإنسانية، وخلدوا على وجه الأرض عقائدهم).

وعند هذا الحد نضع أيدينا على المفتاح الحقيقي وهو أن الترك قد اقتنعوا بالإسلام والدليل على ذلك أنهم أصبحوا المدافعين عنه، وفي ظل الإسلام لازمتهم صفات القوة والشجاعة التي عرفوا بها في نشر الدين.

والحقيقة أن الترك عندما أسلموا فهموا روح الدين الإسلامي حق الفهم، وكانوا متسامحين غير متعصبين، وابتعدوا عن ابتداع المذاهب كما فعل الفرس، ومما يحسب للترك أنهم لم ينشروا الزندقة بين العرب والمسلمين كما فعل الفرس ولا نعرف أنهم أذاعوا عقيدتهم الشامانية أو البوذية أملاً منهم في بعث مظهرًا من مظاهر قوميتهم^(١٢).

أما الفرس فقد عملوا على نشر الزردشية والمانوية بعد الإسلام أملاً في بعث قوميتهم القديمة^(١٣).

وقد يرد البعض على ذلك بالقول بأن الفرس كانت لهم دولة عظيمة هي دولة الساسانيين وأن حضارتهم كانت مزدهرة بالقياس إلى الترك الذين لم تكن لهم دولة ولا حضارة خاصة بهم بالمفهوم الواضح قبل الإسلام.

وعند هذا الحد نتوقف، لأن هنا مرتبط الفرس وهذا ما أقصده بالفعل، وهو أن يدرك القارئ فضل الإسلام على الترك.

فهذا القول في حد ذاته لدليل قاطع على أهمية الرسالة المحمدية على الأتراك، هذه الرسالة هي التي جعلت الترك يشعرون بقوميتهم بقوة، بعد ما كان هذا الشعور ضعيفاً قبل الإسلام^(١٤).

وفي ظل الإسلام حيا الترك وأحيوا كياناً حضارياً وقومياً وسياسياً متيناً، وكأن شريان الحياة عاد ينبض في الترك من جديد بدخولهم الإسلام.

ونتوقف قليلاً هنا لنوضح أن الترك قبل الإسلام كانوا على شيء من الحضارة إلا أنهم لم يكونوا أبداً دولة لها كيانها، وقد تحقق لهم هذا الحلم في ظل الإسلام، فنحن لا نعرف أبطالاً للترك القدامى قبل الإسلام، بل عرفناهم بعد الإسلام ولا نغالي إذا قلنا أن مدلول كلمة تركي يتضمن معنى إسلامياً، وإن كانت قد وردت كلمة تركي في نصوص تركية قبل الإسلام، ولكن مسمى هذا الاسم ليس إلا شعباً واحداً من شعوب السهوب الآسيوية، أما دلالة هذا الاسم على الترك جميعاً فما نشأت إلا في ظل الإسلام^(١٥).

وبعد الإسلام وعندما سيطر الترك لم نسمع أو نعرف أنهم تعصبوا لتركيتهم على العرب كما فعل الفرس عندما تعصبوا لفارسيتهم لقد افتخر الترك بمجدهم ولكن ليس في الدهور السوالم بل في ظل الإسلام.

حقيقة أنهم سيطروا على العرب سيطرة القوي المنتصر على الضعيف المنكسر، ولكنهم أبداً ما حقروهم.

وعلى الرغم من أن الدولة العباسية قامت على مبدأ الشعوبية، أي نصرة الشعوب بعد تسيير العنصر العربي على عهد الأمويين إلا أنهم اعتمدوا اعتماداً كبيراً على الفرس في إدارة أمور الدولة وهنا شعر العنصر العربي قوام العروبة أن البساط يسحب من تحت قدميه، ومن ثم حدث الصراع بين العرب والفرس، وقد أخذ هذا الصراع أشكالاً عدة منها نكبة البرامكة، ومنها أيضاً الصراع بين الأمين والمأمون والذي استمر سنين عدداً، ولما جاء المعتصم كان قد سئم معيشة كل من العرب والفرس، فراح يعتمد على عنصر جديد فكان الترك الذين بلغوا على عهده مبلغاً ووصل عددهم إلى ما يقرب من سبعين ألف تركي^(١٦).

وبذلك استغنى المعتصم عن العرب والفرس وكون جيشاً قوياً من الترك وأسكنهم مدينة سامراء التي بنيت خصيصاً لهم على الطرف الشرقي من دجلة بين بغداد وتكريت^(١٧).

ومنذ ذلك الحين وعظم أمر الترك حتى سيطروا على الخلافة العباسية سيطرة شبه تامة بعد وفاة المعتصم العباسي.

وفي ظل الإسلام أصبح للترك عادات وتقاليد ورسوم لم تكن موجودة من قبل، لقد ذاب الترك في الإسلام واحتواهم جميعاً حقيقة بدأ الأتراك في تغيير بعض مظاهر المجتمع العربي في العصر العباسي ولكن كان ذلك في مصلحة الإسلام والمسلمين عندما قاوموا المد الشيعي الذي بدأ في الظهور واضحاً جلياً على عهد البويهيين الذين سيطروا على الخلافة العباسية سيطرة شبه تامة وسعوا في نشر دعوتهم وكادوا أن يقضوا عليها وذلك بالاتفاق مع الفاطميين لولا ظهور الأتراك السلاجقة الذين جاءوا مدافعين عن الخلافة بسنيتهم المعهودة فالأتراك بالتسنى رباط وثيق^(١٨).

وإن كان الأتراك قد جاوزوا المدى في الجبروت ضد بعض الخلفاء العباسيين ولكن يجب أن نسأل أنفسنا متى كان ذلك؟ كان ذلك في فترة الضعف العباسي، وهي الفترة التي تلت وفاة المعتصم، وهي أيضاً فترة الخلافات والمؤامرات والدسائس داخل القصر العباسي، في هذا الفترة لم يكن الأتراك قد كونوا دولة، ومن أجل

تأكيد سيطرتهم على الخلافة قتلوا اثنين من الخلفاء وعزلوا خمسة من بين اثني عشر خليفة تولوا بعد المعتصم^(١٩).

وعندما أصبح للترك دولا في ظل الإسلام اعتبروا أنفسهم مجاهدين في سبيل الله وفي سبيل نصره هذا الدين.

ويكفي أن نذكر هنا أن الفترة الزمنية من القرن الثالث الهجري حتى القرن السابع كانت فيه غلبة الجيوش والقادة من الترك وليس من العرب ولا الفرس، ولا أدل على ذلك من قول أحد خواص السلطان محمود الغزنوي عندما حضرت السلطان الوفاة قال الرجل متأثراً ((ومن يحمي حمى الإسلام بعدك يا مولاي)) وهنا رد عليه السلطان قائلاً في تواضع شديد ((ومن أنا حتى أستطيع حماية الإسلام إنما يحمي الإسلام الله القادر المتعال)).

وللحقيقة والتاريخ نقول أن هناك شخصيات تركية كانت لها أثراً كبيراً في تاريخ العالم الإسلامي بصفة عامة وتاريخ مصر الإسلامية بصفة خاصة، ومنها على سبيل المثال وليس الحصر شخصية ((يزيد بن عبد الله التركي)) الذي حكم مصر من قبل الخليفة العباسي المنتصر بالله سنة ٢٤٢هـ وشخصية ((أحمد بن طولون)) الذي أسس الدولة الطولونية في مصر سنة ٢٥٤هـ وقد عرف أحمد بن طولون عدله الشديد وشجاعته وتواضعه وزهده، فقد كان يباشر الأمور بنفسه ويحضر مجالس العلم والعلماء وشغل نفسه بعظائم الأمور، ولم يهتم بالمظاهر الزائلة ولا مجالسة الجوارى وليالي الترف، وكان أول إصلاح له في مصر تخفيف وطأة الضرائب على كواهل المصريين فزادت على عهد رفعة الأراض الزراعية كما كان الفضل لأحمد بن طولون في إدخال النسيج الصناعي مصر عندما أسس هذه الصناعة في دمياط^(٢٠).

أما الجيش فقد أعد أحمد بن طولون جيشاً قوياً لمصر كان قوامه من المصريين وكانت لهم رواتب منتظمة، وفي مجال العمران أنشأ ابن طولون مدينة القطائع شمال الفسطاط وامتد العمران من الفسطاط إلى القطائع، كذلك أسس ابن طولون جامع يعرف باسمه لا زال باقياً شاهداً على عظمة هذا الرجل وأقام بجوار الجامع داراً للإمارة.

كذلك قام ابن طولون بإنشاء مستشفى وقدم فيها العلاج بالمجان للمصريين فكانت مصر في عهده بوابة العالم الإسلامي بما في ذلك الخلافة^(٢١).

وخلف بن طولون في مصر ابنه خماروية الذي سعى إلى إصلاح ذات البين مع الخليفة العباسي المعتضد وقدم الهدايا له وانتهى الأمر بزواج الخليفة العباسي من قطر الندي ابنه خماروية واحتفل خماروية بزفاف ابنته احتفالاً يشبه الأسطورة.

وعندما سقطت الدولة الطولونية في مصر قامت على أنقاضها دولة تركية أخرى وكان مؤسسها محمد بن طفج الإخشيد وهو أحد الضباط الأتراك الذين جاء بهم المعتصم إلى العراق فدخل في خدمته حتى أصبح له شأن عظيم، وقد حفظ الإخشيد مصر من خطر والفاطميين، وعندما توفي محمد بن طفج الإخشيد خلفه ابنه الأكبر أبو القاسم انوجور وأقرت الخلافة العباسية ولايته ولما كان صغير السن تولى الوصاية عليه كافور الذي قاوم المد الفاطمي^(٢٢).

وصد ما يقرب من خمس حملات جاءت للاستيلاء على مصر.

وعلى عهد الأيوبيين وبالتحديد مع بداية القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي كان العالم الإسلامي قد تعرض لهجمة شرسة من الصليبيين ووقع على عاتق الأيوبيين مسؤولية التصدي لأعداء الأمة الإسلامية^(٢٣)، وعلى الرغم من أن الأيوبيون أكراد إلا أنهم أقبلوا إقبالاً شديداً على شراء المماليك الأتراك لمهارتهم العسكرية التي عرفوا بها فاستعان بهم صلاح الدين وجعل منهم جنود وسار على نهجه الملك الصالح نجم الدين أيوب حيث أكثر من شرائهم وشيد لهم ثكنات عسكرية في جزيرة الروضة حتى أطلق عليها اسم المماليك البحرية^(٢٤).

والحقيقة التي يجب أن نذكرها أن صلاح الدين الأيوبي علم تماماً من خلال صراعه مع الصليبيين أهمية مصر فقد أدرك الرجل أن مصر يجب أن تقود الصراع وهي القاعدة التي من خلالها يمكن أن يتم الانتصار على الصليبيين بمواردها الاقتصادية وموقعها الجغرافيا لذلك رأى صلاح الدين أن من واجبه الأول أن يبني جيشاً قوياً وجعل قوامه من العرب والأتراك والأكراد فكان مكنم القوة التي تحقق بها نصر حطين^(٢٥).

ولا نبالغ إذا قلنا أن انتصار المسلمين في حطين كان ساحقاً بدرجة جعلت معظم المؤرخين يقولون ((وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لا يظن أن هناك قتلى،

فإذا رأى القتل حسب أنه لم يكن هناك أسرى)) ونضيف نحن على كلام المؤرخين أن نصر حطين كان يمثل كارثة عسكرية حلت بالصلبيين فقدوا فيها زهرة شبابهم من الفرسان.

ولكن استرداد بيت المقدس لم يكن نهاية المطاف في المواجهة الإسلامية الصليبية، فقد عاود الصليبيون الاستيلاء عليه مرة أخرى، وذلك عندما تخلى الأيوبيون عن دورهم التاريخي في الجهاد وهنا ظهرت مرة أخرى قوة الأتراك المماليك فعندما فشل الأيوبيون في الاستجابة للتحدي السياسي العسكري الذي أفرزه الوجود الصليبي على الأرض العربية وتقاعسوا عن القيام بدورهم التاريخي بعد وفاة السلطان الشجاع الصالح نجم الدين أيوب لم يكن هناك بين الجالسين على العروش الأيوبية من يستطيع أن يملأ هذا الفراغ السياسي، ومن طيات هذا الفراغ السياسي برز الترك بفضل كفاءتهم العسكرية أولاً وقدرتهم على أداء دفة السياسة في تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر والعالم.

الإسلامي ثانياً، لقد كان الأتراك قوة وسنداً للعالم الإسلامي في زمن كان للقوة العسكرية الدور الأكبر في حسم مصائر الحكام والمحكومين، لقد بدأ فرسان الأتراك يتقدمون رويداً حتى صار وجودهم مرادفاً للقوة العسكرية والقدرة السياسية.

وللحقيقة والتاريخ تقول أن الأتراك منذ سنة ٦٣٧ - ٦٤٧هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩ هم الذين قادوا الأمة الإسلامية في مواجهة الأخطار القادمة من الشرق والغرب.

فقد كانوا إفراتات سياسياً عسكرياً وللمواقع التاريخية الذي كان يعيشه العالم الإسلامي، خاصة وهو يتعرض لضربات موجهة من العرب الأوربي ففي الوقت الذي كانت فيه قعقعة حوافر الخيل المغولية تقترب لسحق العالم الإسلامي كله، كانت هناك مستوطنات صليبية ما تزال قائمة تهدد المنطقة بأسرها.

وهكذا شهدت خمسينات القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي حدثاً آخر زلزل أركان العالم الإسلامي وهو اجتياح الجحافل المغولية لبلدان الشرق الإسلامي، وكأن العدو قد سلم العالم الإسلامي لبعضه البعض، كانت تلك الظروف تستوجب قيام دولة موحدة على غرار دولة صلاح الدين تقود الأمة في

مواجهة الأخطار القادمة من الشرق والغرب فكانت دولة الأتراك المماليك ولما لا وهم الذين أنزلوا ضربة قاصمة بالحملة الصليبية السابعة التي جاءت لاستيلاء علي مصر بقيادة لويس التاسع سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م والآن صدى طبول الحرب التتارية تدق وتصل إلى مسامعهم من جديد.

لقد أخذ الزحف التتري يطوي البلاد حتى اجتاحت بغداد ووصل إلى بلاد الشام، وبينما كانت هذه الأحداث تدمي القلوب في المنطقة العربية كان الأتراك هم القوة الوحيدة القادرة على حماية دار الإسلام وفي صبيحة يوم الجمعة السادس والعشرون من شهر رمضان ٦٥٨هـ / ٣ سبتمبر ١٢٦٠م دارت المعركة الفاصلة بين الأتراك المماليك والتتار وأسفرت عن هزيمة التتار شر هزيمة في موقعة عين جالوت^(٢٦).

وهكذا وبفضل الأتراك ومن مصر تحول العالم الإسلامي من قبلة الغزاة إلى مقبرة الغزاة حيث كانوا هم القوة الضاربة في العالم الإسلامي كله.

فلم يكن من قبيل الصدفة قط أن يكون الأتراك هم الذين خاضوا من مصر جميع المعارك الفاصلة التي دارت على أرض الإسلام.

ففي دروب هذه الأرض حسم الأتراك هذه المعارك لصالحهم، وحسم معها مصير الأمة الإسلامية ويصدق هذا ابتداء من قطر وبيبرس وقلاوون حتى سليم الأول ومحمد الفاتح. وعلى الرغم من تحقيق هذه الانتصارات التي حققها الأتراك إلا أن وقع الصدمة على نفوس المسلمين كان عظيماً حيث وجدوا أنفسهم بدون خليفة للمرة الأولى في تاريخهم ولعل هذا ما دفع الظاهر بيبرس إلى إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة وأصبح الأتراك منذ ذلك الحين حماة الخلافة وصارت القاهرة بمثابة المعقل والحصن للإسلام والمسلمين.

وهكذا بين الازدهار والانكسار وبين الدين والسياسة تحول الأتراك في مصر من وعاء للقوة إلى أداة للقوة وكذلك تحولت أرض مصر إلى بوابة دموية للشعوب الغازية.

وكان التاريخ قد ادخر للأتراك شرف القضاء على هذه الشعوب الغازية بفضل قلاوون تقلص الوجود الصليبي على الخريطة الإسلامية عندما استطاع استرداد إمارة طرابلس وكان الظاهر بيبرس قد استرد اتطاكية من قبل ولم يعد

للصليبيين في بلاد الشام سوى عكا وألان أصبحت كل الشواهد تؤكد وتدلل على أن الكيان الصليبي في الأرض العربية دخل مرحلة الاحتضار بفضل هؤلاء الأتراك. وأن نهايتهم قد حانت على يد الأشرف خليل بن قلاوون الذي استطاع أن يسترد عكا في يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ فقبل أن ينتصف نهار ذلك اليوم كانت الأعلام الإسلامية تخفق فوق أسوار الأرض العربية كلها. وبذلك وبفضل الأتراك زالت دولة الفرنج بعد أن استمرت في الوجود مائتي سنة تقريباً.

وفي نهاية المطاف نقول بلا غضاضة أن بفضل الإسلام كان الأتراك وبفضل الأتراك تحققت هذه الانتصارات وذاب الصليبيون والمغول في العالم الإسلامي وأصبحوا جزءاً منه.

وبفضل مصر أصبح العالم الإسلامي قبلة وبوابة للقوة فهي قوة ارتباطية تتوسط منطقة تصادم حساسة، فمصر برميل من البارود استراتيجياً وهي في نفس الوقت صندوق من الذهب اقتصادياً.

الهوامش

- (^١) أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ط، القاهرة ١٩٦٣، ص ٢٨ - ٨٧ - ٨٨.
- (^٢) علي النعماني، كتاب الأساس في الأمم السامية ولغاتها ولفاتها، ط. القاهرة ١٩٣٥ ص ٣٤.
- (^٣) نشوان الحميري، ملوك حمير وأفيال اليمن، ط. القاهرة، ١٣٧٨هـ، ص ٦٢ - ٦٧.
- (^٤) عن هذه الفتوحات راجع، الواقدي، فتوح الإسلام، ط. القاهرة ١٨٩١، ص ١٤١ - ١٤٣ - ١٣٦.
- (^٥) نفسه.
- (^٦) عبد الكريم غريبة، العرب والأترك، ط. دمشق ١٩٦١ صفحات متعددة.
- (^٧) نفسه.
- (^٨) حسين مجيب المصري، تاريخ الأدب التركي، ط. القاهرة ١٩٥١، ص ٣١.
- (^٩) محمد يوسف موسى، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، ط. القاهرة ١٩٦١، ص ٢٦٨ - ٢٦٩.
- (^{١٠}) نفسه.
- (^{١١}) P.3.4 Omer DogruL: Islam Istanbul ١٩٦٤.
- (^{١٢}) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ط. القاهرة ١٩٣٠، ج ٢، ص ٢٣٣.
- (^{١٣}) أبو اسحق القيرواني، زهر الآداب، ط. القاهرة ١٩٢٩، ج ١، ص ٣٣١.
- (^{١٤}) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط. القاهرة، ج ٧، ص ٣١.
- (^{١٥}) Lewis: The emergence of modern Turkey, London 1968, p.8.
- (^{١٦}) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٢٣٣.
- (^{١٧}) نفسه.
- (^{١٨}) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٣٥ - ٤١.
- (^{١٩}) ابن طباطبا، الفخري، ط. القاهرة ١٩٢٧، ص ١٧٧ - ١٨١.
- (^{٢٠}) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ط. القاهرة، ١٩٥٢، ص ٣٩٦.
- (^{٢١}) نفسه.

(^{٢٢}) نفسه.

(^{٢٣}) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، نشر جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٥٣، حـ ١، ص ٦-١٠-١٥.

(^{٢٤}) ابن واصل، مفرج الكروب، حـ ٢، ص ٢٨.

(^{٢٥}) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ط. القاهرة، ١٢٨٧هـ، حـ ١ ص ٣ وما بعدها.

(^{٢٦}) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفى زيادة، ط. القاهرة، ١٩٥٦، حـ ١، ص ٢٥٧-٢٥٨ وما بعدها.